19 me, année No 921

Le Caire 26 — 2 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨٩ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٢١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ٢٦ فبراير سنة ١٩٥١ — السنة الثامنة عشرة »

الدين والسلوك الانسانى

للأستاذ عمر حليق

— ٥ —

النتائج الاجتماعية للاختيار الدينى (١)

ليس التاريخ الدينى إلا تاريخ الصراع الناجح الذى توصل فيه الإنسان إلى التعبير عن الانفعالات النفسانية والطمأنينة الروحية التى اختبرها فى امتثاله لتعاليم الأديان على حد قول (جورج سميل) الفيلسوف الاجتماعى الألمانى (٢)

حاول سميل ومفكر بريطانى آخر (٣) أن يتلمسا أوجه الشبه بين النظم الروحية وبين النشاط الفكرى الذى يحمل فى ثناياه متعاً روحية كالفن والشعر والأدب الرفيع وفلسفة التشريع والعلوم المادية

وليس يعنينا فى هذا البحث استعراض أوجه الشبه هذه وإنما لفتنا النظر إليها لبيان ما تنطوى عليه معارضة بعض المثقفين المحدثين من الذين نفروا من الحياة الدينية واستعاضوا عنها بالفن والمتعة الروحية المستمدة منه ومن فلسفة التشريع والعلوم الطبيعية

ولعلنا نوفى هذا الاستعراض حقه إذا حاولنا التعرف على حقيقة الاختيار الدينى والمسالك العاطفية والنفسانية التى ينتهجها

يحلو لبعض الناس ومنهم الصوفية والمنقطعون إلى العبادة أن ينادوا بأن الدين فى أصوله ليس إلا تأملات فى النفس وخالقها وفى النظام الكونى . ويقول الدنيويون من خصوم الحياة الدينية إن الأديان وليدة التأمل فى الخليقة وبارئها ؛ وعليه يجب ألا تتعدى حدود التأمل والعبادة

ومثل هذا الوصف لا يعطى إلا صورة مشوهة عن وظيفة الدين وحقيقة الاختيار الدينى

ولقد رأينا كيف حاول (دير كهايم) أن يجيب عن التساؤل الذى شغل الناس فى الغرب منذ قرون وهو : هل تسبق العقيدة الاختيار الدينى، أم أن ذلك الاختيار هو الذى يساعد على رسوخ العقيدة فى نفسية المؤمن ؟ وهل الطقوس الدينية مستمدة من العقيدة ، أم الصواب عكس ذلك ؟

---

(١) الاختيار الدينى تعبير وسط لا يعنى به كاتب هذه السطور الانقطاع للحياة الروحية المجردة ، ولا يعنى به كذلك مجرد الانتماء إلى عقيدة من العقائد السماوية، وإنما هو ذلك الوضع الذى يعتنق فيه امرؤ مذهباً دينياً ويؤمن به إيماناً صادقاً يستمد منه المتعة الروحية والطمأنينة النفسانية ويمثل القيم والمثل الأخلاقية التى تنطوى عليها تعاليم ذلك المذهب الدينى . ولعل كلمة التقوى أقرب المصطلحات الاسلامية إلى هذا التعبير

(٢) George Simmel Contribution to the Sociology of Religion

(٣) J. Macmurray, Structure of Religious Experience,

فكان الجواب أن هناك تواكلا بين العقيدة والاختيار الدينى المعبر عنها . فهما عنصران يكونان حلقة واحدة ؛ فالتساؤل عن إيضاحها كالتساؤل عن إيضاح السؤال المنطقى القديم « من يأتى أولا ؟ الدجاجة أم البيضة » ؟

وحاول مفكر ألمانى شهير أن يضع لهذا التساؤل حدا يرد به على الدينويين فقال : إن الاختيار الدينى هو فى الواقع مزيج من الإدراك العقلى والشعور النفسانى (السيكولوجى) وليس المهم أن نحدد أيهما يسبق الآخر ، وإنما المهم أن نقرر بأن الاختيار الدينى سلوك يدور فى نطاق هاتين الحقيقتين [١]

وأخذ كاتب ألمانى آخر [٢] هذا الجواب وبنى عليه بحثا جعله فى ثلاثة أبواب :—

(١) العقيدة والاختيار الدينى

(٢) الطقوس والاختيار الدينى

(٣) النتائج الاجتماعية للاختيار الدينى

وسنعتمد إلى حد بعيد على هذا التقسيم فى هذا الفصل من دراستنا

العقيدة

يقول (لاوى بروهل) فى دراسته الشهيرة [٣] إن الأسطورة أو الخرافة التى تتعلق بها المجتمعات البدائية تتطور فتصبح عقيدة عند المجتمعات المتحضرة . وللأساطير لغتها المنطقية الخاصة . والأساطير التى تتعلق بالآلهة عند المجتمعات البدائية تتفرع وتتشعب ولكنها تتحد فى الجوهر . وحين يأخذ المجتمع البدائى بأسباب الحضارة تتقلص أنواع أساطيره ويندثر بعضها لتفسح الطريق أمام ملحمة محبوكة الأجزاء . ويلعب التطور الفكرى والنمو العقلى دوره الكبير فى خلق هذه الملحمة مطهرة من الأدران والسخافات التى لا يدرك الفكر البدائى سذاجتها . ويصاحب هذا النمو العقلى عادة تركز السلطة الروحية التى تعبر عنها هذه الملحمة فى يد الكهنة وخدام الآلهة ، ألميا كل المقدسة وفى هذه المركزية تصاغ الرموز والتعبيرات الدينية وتصبح هذه الرموز (التى كانت فيما قبل شفهية تتناقل بالرواية) سجلا للجماعة التى تؤمن بها وتعتقل لتعاليمها . ويقوم الكهنة جيلا بعد جيل بشرح هذا السجل وإحاطته بهالة من التقى والرشاد ، ومن ثم ينشأ علم اللاهوت ونظام الكهنوت

ويبقى هذا التراث المسجل وقفاً على الكهنة وأعوانهم بينما يكتفى الأتباع بمعرفة الخطوط الرئيسية لهذا التراث المسجل

والعقيدة التى تنشأ على هذا المنوال لا تتحمل تفنيداً ولا تتعرض للنمو الصحي ؛ وإنما تظل منطوية على كثير من الهراء والسفسطة والزيغ الذى لا يقبله العقل السليم

وعلى مبلغ صدق العقيدة وصحة ألوهيتها تتوقف سماحة الدين . فالعقيدة التى تظل محصورة فى يد الكهنوت تعجز عن مماشاة التقدم الفكرى والرقى العقلى للفرد وللجماعة

أما العقيدة الإلهية الصادقة التى لم تنشأ عن الأساطير والخرافات وإنما نشأت عن وحى من الإله العلى العظيم ورسله المختارين فلا يجد الجدل إلى جوهرها سبيلا . فهى ليست وقفاً على طائفة من الكهنة ولا هى نظام إدارى تنحصر وراثته فى نفر معين من الأتباع ؛ وإنما هى مشاع بين الناس وتراثها المسجل فى متناول الجميع

والإسلام عقيدة أوحى بها الله إلى نبيه المختار ورسوله المصطفى ؛ والرسول الكريم لم يكن كاهنا يحتكر المعرفة الدينية وإنما كان مبشراً ونذيرا يدعو الناس إلى اتباع هذه المثل العليا التى نزل بها الوحى عليه ، ووضع القرآن الكريم فى يد كل من يستطيع قراءته ومن لا يستطيع . ولقد يجوز لنا أن نقول كذلك إن نظام الصلاة فى الإسلام كما أراده الله تعالى إلى رسوله الكريم قد عنى به بالإضافة إلى الطهارة الروحية والجسمانية ، وحق الخالق على المخلوق بالإضافة إلى هذه الحقائق المجيدة أن يستمع الناس إلى كلمة الله صافية خالية من التأويل والتفسير . وكأن البارى عز وجل لم يكتف بتجريد الإسلام من الكهنوت ، بل أوصى جل جلاله فى طريقة عملية ألا تكون هناك صلات بين العبد وبارئه غير صلات الروح والفكر المستمدة من الاقتناع الشخصى

والسنة الإسلامية الموروثة أن يلقن القرآن الكريم للأحداث

---

[١] H. Fattesbrink The meaning of objectivism.

[٢] J, wach, Sociology of Religion.

[٣] Primitive Mentality

فى سن مبكرة ، فينشأوا ولا غموض يكتنف عقيدتهم ، ولا هالة تحيط بطقوس دينهم ، ولا وساطة بينهم وبين الملى العظيم

والتخصص فى دراسة الدين الإسلامى فى معاهد العلم لا يفترض مركزية روحية ولا ينطوى على احتكار لعلوم الدين. وما يقوم به رجال الدين فى الإسلام يكاد ينحصر فى تذكير العباد بكلمة الله كما نزلت فى القرآن الكريم وكما عززتها الأحاديث النبوية واجتهاد الأئمة والصالحين

وكل مستمع إلى خطب الجمع والأعياد يلمس ذلك كله لمساً تاما . وكل دارس للتراث الإسلامى فى الفقه والتشريع وما إليه يدرك ذلك من أول وهلة

فالأزهر وغيره من معاقل العلوم الدينية لا يخرج كهنة، وإنما يؤهل طلبته لنشر الدعوة الإسلامية وشرحها وتوضيحها للفرد وللجماعة الذين عاقتهم شؤون الحياة اليومية عن استذكار التعاليم الدينية وما انطوت عليه من حكم وموعظات

فوظائف رجال الدين فى الإسلام على تنوعها لا تتعدى الوعظ والتعليم والإفتاء، وكلها نشاط متمم للثقافة الدينية التى بدأها الحدث المسلم فى سنه الباكرة

وقد اتجهت البروتستانتية إلى الاقتداء بالإسلام فى هذا المضمار والواقع أن البروتستانتية فى بعض أسسها الجوهرية لم تكن إلا ثورة على كهنوت الكنيسة وما أحدثته من ديكتاتورية دينية على النحو الذى يعرفه المطلعون على تعاليم لوثر وكالفين وجماعة الموحدين [١]

وخلو الإسلام من سلطة الكهنوت الروحية واهتمامه ببيان العقائد والعبادات لا ينفى أن أحكامه تستوجب نوعاً آخر يراد به تنظيم السلطة الدينية وموقفها إزاء الفرد والجماعة وتنظيم علاقات الأفراد بعضها ببعض . فقد شرع الإسلام القصاص فى القتل وغير ذلك من الجرائم ، وشرع الدية وشرح كثيراً من أحكام الأسرة والمعاملات الشخصية . ولا يمكن أن يكون شرع هذه الأحكام لمجرد البيان والإرشاد دون الأمر بإقامتها والحكم بها فى المحاكم الشرعية ، وهى سلطة دينية تستمد وزنها وأحكامها من الشرع والتعاليم الاسلامية ، ولكنها مع ذلك بعيدة كل البعد ومغايرة كل المغايرة لسلطة الكهنوت . فلكل فرد من المسلمين الحق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «والنكوص عنه مع القدرة عليه إثم عظيم» كما قال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية السابق فى خلال النقاش عن السلطة الدينية وحقوقها وواجباتها [٢]

ولنعد إلى صلب موضوعنا . رأينا مع (لاوى بروهل) كيف ينشأ الكهنوت من تركز السلطة الروحية فى يد جماعة مختارة من الحافظين لتراث الدين المسجل ، وكيف أن هذا الكهنوت بحكم احتكاره المعرفة الدينية وحقوقها وواجباتها قد وضع ما يعرف فى بعض الديانات بعلم « اللاهوت »

وحين خرج من قبضة الكهنوت احتكار المعرفة الدينية وأتيح لبعض الناسبين من الرعية التعمق فى الدراسة والاستقراء نشأت الفلسفة الدينية وأخذت تجادل الكهنوت فى أسرار الدين وتأويلاته وتحليلاته وأحكامه وتفاسيره

ووجد الكهنوت فى بعض الحالات أنفسهم فى مأزق حرج فلم يكن استعدادهم الفكرى ليتحمل هذا النقد ؛ وذلك لأن حياة الكهنوت فى عزلة عن الحياة اليومية ، ولأن اللاهوت الذى وضع الكهنة على مدى الأجيال أسسه ومبادئه كان قد أهمل فى كثير من الحالات مراعاة الحقائق الاجتماعية ؛ ولذلك فقد وجد الفلاسفة ومن ورائهم علماء الطبيعة مأخذ على العقيدة الدينية كما يحفظها الكهنة ويبشرون بها ويعرضونها على سلوك الناس . واشتط الفلاسفة وعلماء الطبيعة فى تهجمهم على الكهنة ولاهوتهم

---

١ جماعة الموحدين حركة بروتستانتية يزداد أتباعها فى أمريكا يوماً عن يوم. ويفخر القائمون إليها بأنها دين الشعب بمعنى أن الصلاة يؤمها أى مؤمن من المؤمنين ، وليس للقساوسة شأن كبير فى هذه الحركة إذ أن من أهدافها الرئيسية رفع الوساطة بين المرء وربه وجعلها على مثل التعاليم الإسلامية التى تنظم علاقة الانسان بالعزة الالهية . وقد تنبى الكاتب هذه السطور أن يتحدث عن الاسلام فى حلقة لدراسة العقائد الدينية تنظمها اللجنة المركزية لجماعة الموحدين فى جامعة هارفارد وقد أبدى الحضور مزيداً من الاهتمام بطبيعة النظم الدينية والسلوك الدينى فى الاسلام وقررت الحلقة فيما قررت أن تتصل بالمراجع الاسلامية فى مصر والبلاد كتان للتوسع فى دراسة هذه النظم الاسلامية من مصادرها الأصلية

١٨ ، ٣٦

١ — راجع جريدة المصرى أعداد ٢ ، ٣ ، ٤ يونيو سنة ١٩٥٠ والنقاش الذى دار بين الأستاذ محمد خطاب بك وجماعة كبار العلماء فى الأزهر حول مصادرة كتاب « من هنا نبدأ » الذى وضعه الشيخ محمد خالد